باب شبهات النصارى وحجج المسلمين

(النبذة السادسة في رد شبهاتهم على القرآن)

(الشاهد الحادي عشر) قال المعترض : ومما يقضي بالعجب أن يناقض القرآن نفسه في القدر الذي هو من الايمان وركن مهم من أركان الاسلام فقال « لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ » أي من كل أمر قدر في تلك السنة كما عليه جمهور المفسرين . وقال أيضا « إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ » وهي عندهم ليلة القدر التي تفصل فيها الأقضية ويفرق أي يقدر كل أمر يقع ذلك العام من حياة أو موت أو غير ذلك الى مثلها من قابل وهذا يترتب عليه أن أمور الخلق تقدر عاما عاما . لكن ذلك منقوض بقوله في سورة الحديد « ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا في أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها » أي الا مكتوبة في اللوح المحفوظ مثبتة فى علم الله من قبل أن نخلق وأنت تعلم أن هذا اللوح قد كتبت فيه بزعمهم كل الأمور وقدرت من قبل أن تكون ليلة القدر . وزاد ذلك ايضاحا فقال « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه » أي ألزمناه عمله وما قدر له وعليه منذ ميلاده حتى لزمه لزوم الطوق للعنق . ويترتب على هذا أنه قدر على الانسان دقة كل ما يعمله في عمره لا ما يعمله في عامه فقط وهذا تناقض بين في أركان الايمان لا يصح وقوعه في كتاب جميع ما فيه كلام الله : اه قوله بحروفه الا كلمة (أنفسكم) من الآية الكريمة بدلها بنفوسكم فكتبنا الاصل الصحيح.

ونقول في الجواب : إننا كتبنا كل ما كتبه في تقرير هذه الشبهة وحسبه ما كتبه فضيحة ودلالة على سوء القصد وتعمد التمويه ولو قلنا إنه يزعم أن بين تلك الآيات تناقضا

ولم نذكر ماقرر وشرح به ذلك التناقض لما أفاد القول الا أنه جاهل لم يفهم تلك الآيات وهذا عار عليه أكبر وخلاف الواقع . أما كونه خلاف الواقع فهو انه اطلع على تفسير الآيات وفهمها وأما كونه أكبر عارا فذاك أن الجهل عار عند جميع الناس من أهل ملته وغيرهم، وان قومه يعدونه من كبار الكتاب والبلغاء فاذا ظهر لهم انه لايفهم هذه الآيات فانهم يحتقرونه وينزعون عنه لباس تلك الخصوصية فيكون عاريا من كل مزية ،وليس في سوء القصد وسلوك سبيل المغالطة في تشكيك عوام المسلمين بدينهم الا احتقار العلماء والفضلاء من جميع الطوائف وأهل الانصاف من قومه النصارى خاصة وأما المتعصبون منهم مثله فانه ليرضيهم الطعن بالاسلام والمسلمين ، وان جاء صاحبه بالافك المبين

هذه الشبهة لاتحتاج الى جواب من حيث هي شبهة على القرآن لأن محلها في زعمه ان بعض الآيات نص في أن أمور الخلق تقدر عاما فعاما وبعضها نص في أنها تقدر دفعة واحدة وليس شيء منها كما قال. فقوله تعالى « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » لايدل على أن أمور الخلق تقدر عاما عاما كما زعم وهذا ظاهر لايحتاج الى بيان اذ ليس فيها ذكر للتقدير ولا للسنين والاعوام . وقوله جل وعز « ما أصاب من مصيبة» الآية ـ ليس نصا في أن أمور المخلوقات تقدر دفعة واحدة كما أدعى وانما تدل على أن المصائب في الآفاق وفي الأنفس معلومة قبل وقوعها لله تعالى علم الامر المحصي في الكتاب اوهي مكتوبة كتابة تناسب عالم الغيب وتليق به، وليس فيها أن تلك الكتابة التي ذكرت على سبيل التمثيل أو المجاز أو الحقيقة الغيبية حصلت دفعة واحدة أو بالتدريج أو انها كانت في أول العالم أو قبل خلق الانام . ولكن العقل والنقل يدلان على أن علم الله تعالى قديم لاتدريج فيه لأن التدريج لايكون الا في الحوادث وهو يستلزم الجهل فتعين ان يقال ان ما يقع من المصائب وغيرها معلوم لله تعالى في الأزل . فان أريد بالكتابة العلم الالهي فظاهر وان أريد أن هناك كتابة فلا شك أنها تكون للملائكة الموكلين بالأعمال الذين جعل الله بهم قوام السنن العامة والنواميس الكلية والذين يسميهم المحجوبون قوى ونواميس طبيعية . وعند ذلك يصح أن تكون الكتابة في كل عام ولكن الآية ليست نصا في هذا فلا يمكن الاعتراض

عليها بحال. وكذلك قوله تعالى « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه » ليس نصا في كون أعمال الانسان قدرت عليه دفعة واحدة ولا منافيا لكونها تقدر عليه في كل عام كما هو ظاهر وانما معناه أن الانسان رهين بعمله ومطوق به لا يستطيع ان يتفلت من تبعته لماله في التأثير في نفسه فان الاعمال تطبع الملكات وتكون الاخلاق التي هي صفات النفس فآثارها لازمة للانسان لزوم الطوق للعنق . فاين هذا المعنى الظاهر مما زعمه المعترض وكيف السبيل الى القول بتناقضه مع تلك الآية لو فرضنا أنها نص فيما فسرها به ؟؟

بقي ان يقال : ان المعترض بني حكمه على قول المفسرين في ليلة القدر انها الليلة المباركة الموصوفة في سورة الدخان بقوله تعالى « فيها يفرق كل أمر حكيم » وقد فسر الفرق بالتقدير وقال جمهورهم بان المراد تقدير أمور العام : ونقول في الجواب (أولا) انه قد علم مما شرحناه ان آية الحديد وآية الاسراء لا تناقضان هذا التفسير لان المطلق لا ينافي المقيد ولا يناقضه ولعلماء الاصول في مقابلة المطلق بالمقيد قولان أحدهما أن المطلق يجري على إطلاقه والمقيد يجري على قيده. فلو فرضنا أن معنى الآيات ماذكر لما كان من مانع لأن يقال ان هناك تقديرا أزليا وهو ما في علم الله الازلي وتقديراً سنويا يحدد في كل عام لحكمة من الحكم ككون الملائكة المدبرات للأعمال والشؤون تجري عليه. ولاشك ان الملائكة لا يعلمون كل ما في علم الله تعالى ولا يستطيعون ان يعلموا كل ذلك فالله تعالى يعلمهم بما تقضي حكمته ان يعلموه . واذا صح هذا فيشبهه في عالم الشهادة ان الفلكي يكتب تقويما للسنة ثم يستخرج منه في كل شهر تقويما لغرض من الأغراض كسهولة المراجعة مثلا. ومن الناس من كتب تقويما لألوف من السنين فاذا كتب تقاويم أخرى للاعوام عاما عاما أو للشهور شهرا شهرا وقال قائل ان فلانا كتب تقويما لخمسة آلاف عاما ثم قال في سياق آخر انه كتب تقويما للسنة فهل يقال ان هذين القولين متناقضان ؟ كلا إنما يقول ذلك الجاهل الذي يفهم معنى التناقض

وثاني قولي الاصوليين ان المقيد يقيد المطلق كما قالوا في الامر باعتاق القاتل رقبة مؤمنة انه يقيد أمر الحانث باليمين باعتاق رقبة لم تقيد بأنها مؤمنة. ومن امثلة ذلك ان يكتب المؤرخ أو صاحب الجريدة ان فلانا صار عالما وألف كتابا نفيسا

ثم يكتب في وقت آخر :ان فلانا قد ألف كتابا في علم البيان: فيحمل هذا على ذلك ويقال انه أراد بالكتاب المطلق كتاب البيان . والامثلة في كل من القولين كثيرة ويختلف الترجيح باختلاف الوقائع والاحوال

ثم نقول (ثانيا) انه لايصح للعاقل أن يحمل رأي بعض المفسرين ولا جمهورهم حاكما على الكلام الذين يفسرونه اذا كان يرى ان الكلام لايدل عليه ،وظاهر لكل من يعرف العربية انه لايوجد في آية من الآيات مايدل على التقدير النحوي لابمنطوق الآيات ولا بمفهومها ولكن جرت عادة المفسرين بأن يذكروا في كل موضوع ما يتعلق به من الآراء أو الاحكام المروية عن السلف وائمة المذاهب مرفوعة أو موقوفة صحيحة أو ضعيفة كما يذكرون آراء النحاة في إعراب الآيات فمن يتعلق برأي أو رواية مما يوردونه في التفسير يرى آية أخرى تنافيه فيجعل هذا شاهدا على تناقض القرآن نفسه فهو كمن يتعلق برأي من آراء النحاة التي يوردونها يمنع أو يجيز حكما في الاعراب لاينطبق ذلك الحكم على آية أخرى غير التي أوردوه في إعرابها ثم يقول: إن هذه الآية مخالفة لتلك في الاعراب فهي غلط أو لحن : وما هي بمخالفة الا لرأي ذلك النحوي!

وبعد هذا كله نقول ان (القدر) في قوله تعالى « انا أنزلناه في ليلة القدر » معناه الشرف وهو المتبادر منه وليس معناه التقدير وقد قدم البيضاوي القول الاول في تفسيره وذكر الثاني بصيغة التمريض (قيل) ومعنى الشرف فيها ظاهر فإنها الليلة التي بدئ فيها نزول القرآن فهي شرف للنبي عليه الصلاة والسلام ولقومه ولجميع المؤمنين كما قال تعالى في القرآن « وانه لذكر لك ولقومك » أي شرف لكم.وأي شرف أعظم من هذه الهداية الالهية العظمى . وأما قوله تعالى «تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » فمعناه أنهم ينزلون من أجل كل أمر من أمور الوحي لامن أمور الخلق لأن سياق الكلام فيه لافي التكوين

وأما قوله تعالى « انا أنزلناه في ليلة مباركة ـ الى قوله ـ فيها يفرق كل أمر حكيم » فمعناه انه أنزل القرآن في ليلة مباركة والبركة فيها ظاهرة كما ان الشرف فيها ظاهر فهي ليلة القدر خلافا لبعض المفسرين الذين قالوا أنها ليلة النصف من شعبان .

وقوله تعالى « فيها يفرق كل أمر حكيم » معناه انه يفصل فيها ويبين كل أمر من أمور الوحي لامن أمور الخليقة بدليل ان سياق الكلام في انزال القرآن وبدليل الآية التي بعدها وهي « أمرا من عندنا انا كنا مرسلين » فبين أن هذه الأمور هي التي تختص بارسال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

واعلم انه قد ورد في تفسير هذه الآية ان الملائكة تكتب فيها الأقدار ولكن هذا ليس منصوصا في الكتاب العزيز ولافي الحديث المتواتر فيكون قطعيا والاعتقاد به محتما ولا في الاحاديث المرفوعة الصحيحة الآحادية فيكون ظنيا والاعتقاد به من الاحتياط وانما ورد عن بعض الذين اشتهروا بالتفسير من السلف ورويت عنهم فيه الموضوعات والاكاذيب حتى قال الامام أحمد انه لايصح في التفسير شيء ، وأقوى ماروي في ذلك مارواه عبد الرزاق وغيره عن مجاهد وعكرمة وقتادة . وقد علمت أن المعترض قد سقط بشبهته سواء صح ذلك عن هؤلاء المفسرين أم لم يصح « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين »

باب الاسئلة والاجوبة

(بيان القرآن وبلاغته ومايوهم غير ذلك)

(س ١) الشيخ احمد محمد الالفي بطوخ القراموص : كيف الجمع بين قوله تعالى « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » وقوله تعالى « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا »

(ج) راجعوا ما كتبه الاستاذ الامام في الجمع بين الآية الاولى وبين قوله تعالى «قل كل من عند الله» في الصفحة ١٥٧ من مجلد المنار الثالث

(س٢) ومنه : كيف الجمع بين قوله تعالى في أوائل السور : حم : الر : ن : ق : وقوله «عربي مبين » وقوله «تلك آيات الكتاب المبين ـ قرآنا عربيا غير ذي عوج» الخ :

(ج) ان «حم» ونظائرها أسماء للسور على الراجح عند المحققين ودلالة الاسم على المسمى بينة لاعوج فيها وأنتم تعلمون ان الاسماء لاتعلل فلا يقال : لماذا سميت السورة المعلومة (ن) فان كانت سميت بها لذكر الحوت فيها والنون من أسماء الحوت فلماذا